مفتتح

المفارقة تعني الابتعاد والاختلاف ، ووجود شيئين متباعدين لا تلاقي بينهما . حياة التي نعيشها مليئة بالمفارقة ، مفارقة طول اليوم يواجهها المرء منذ نهوضه من نومه : فهو يرى المرتفعات والمنخفضات ، ويرى الكائنات ؛ القوي منها والضعيف ، ويرى الأرض والسماء ، ويمر بالظل و الحرور ، ويرى الشيخ الكبير الذي بلغ من العمر أرذله ، كما يرى الطفل الوليد ، ومفارقة بين الجميل والقبيح والخير والشر ، وبين الظلم والعدل .

وقد شاع استخدام مصطلح المفارقة في نهاية القرن الثامن عشر. وكانت يقصد به (وجود كلام مغاير للمعنى).مع ما تحمله الكلمات من دلالات متباينة تفهمها القارئ بعد كد وإعمال ذهن .

وهي – بعبارة أخرى – التعبير عن شيئين متباينين . ولأن لغتنا العربية تنفرد وتتميز عن غيرها من لغات العالم ، فكلمة واحدة يمكن أن تعطي القارئ أكثر من معنى ودلالة. انظر إلى الفعل (قضى) وما يحمل من دلالات ، فتقول :

- قضى القاضي بالعدل بين الناس . أي حكم .
- قضى الرجل ما عليه من دَين .أي أدى ما عليه .
- قضى نحبه . أي هلك ومات .

وفي المفارقة تتعدد التفسيرات. وعلى هذا الأساس هناك مستويان(ظاهر وخفي) تربط بينهما علاقة ما يساعد القارئ في البحث عن المفارقة في المستوى الخفي.

وليست المفارقة وجود اختلاف أو تباين في الجملة أو العبارة فقط، بل يكون التباين بين الأفكار في النص المكتوب. ويكثر ذلك في اللغة الساخرة الجادة للظاهرات الاجتماعية والمواقف السياسية المتباينة.

وقد يبدو النص المقروء – من خلال القراءة الأولى – سطحيا بلا معنى، خاليا من المضمون الجيد الذي يهم الإنسان، ولكن القراءة الثانية أو الثالثة، تكشف للقارئ الدلالة العميقة والمعنى البعيد الخفي.

" والمفارقة ليس لها جهاز، ولا ميزان يقدّر ارتفاع حرارتها أو انخفاضها. فالميزان الوحيد هو المتلقي، ومدى قدرته وثقافته وتفتح ذهنه. هو الزئبق الوحيد القادر على كشف المفارقة ومعرفة أبعادها الأفقية ".

وليس عجيبًا ولا غريبا أن يدرك النقاد العرب قديما أن حس الشاعر بـ(المفارقة) لا يقتصر على رؤية الأضداد فقط بل يتعدى إلى وصفها ووضعها في إطارها الصحيح (المفارقة).

وقد كان شاعرنا (أبو الطيب المتنبي) رائعا في مفارقاته اللغوية التي أولاها اهتماما خاصا فيما أبدع من قصيد، فما تزال شواهد المفارقة التي ضمنها شعره تتناقلها ألسنة الأجيال في إعجاب وغبطة، تأمل قوله :

ذُو العَقْلِ يَشقَى في النَّعيمِ بِعَقْلِهِ وَأَخو الجَهَالَةِ في الشَّقَاوَةِ يَنعَمُ

تجد عجبا ؛ إذ كيف يكون العقل سببًا في شقاء الإنسان في النعيم ؟ ، وهل النعيم شقاء ؟ وكيف يكون الجاهل منعما في شقائه ؟

تساؤلات يثيرها بيت المتنبي فيدهشك ما فيه من التعارض والتناقض والتقابل، مما يؤدي إلى استثارة وعي المتلقي وتحفيزه لإدراك المعاني الخفية التي تنطوي عليها هذه (المفارقة).

إن في هذا البيت يقوض ما رسخ في ذهن القارئ من حقائق وثوابت حين صبح العقل نقمةً والجهل نعمة، ويتحول الشقاء نعيمًا والنعيم شقاء، من خلال ما صاغ من تعارض بين العبارتين (يشقى في النعيم) و(في الشقاوة ينعم)، ليقيم عارفه شعرية تثير الدهشة وتدعو للإعجاب .

والمنطقي المقبول الثابت في ذهن المتلقي أن صاحب العقل سليم التفكير حي الإرادة وأن العقل نعمة حباها الله تعالى للإنسان وميزه بها عن غيره، من سائر المخلوقات، ليفرق بين الغث والثمين والطيب والخبيث . لذلك فمن غير المتوقع أن يكون الإنسان غريبًا عن ذاته، فيرى في النعيم شقاءه، ويرى في الشقاء نعيمه ؛ لأنه مما يخالف الطبيعة الإنسانية فجاءت العبارتان (يشقى في النعيم) و(في الشقاوة ينعم)، لتحطم التوقع، وتخالف المألوف بما تحمل من (مفارقة) ساخرة، تقلب المفاهيم وتناقض المتوقع .

والذي لا شك فيه أن حياة المتنبي ، وسيرته الذاتية وما تغص به من مفارقات وتناقضات تقف وراء ما نلمسه في شعره من سخرية حينا وتهكم حينا ومفارقات في أحايين كثيرة .

وشواهد المفارقة في شعرنا القديم كثيرة تعج بها كتب الأدب ودواوين الشعراء ، لذلك جاء هذا المؤلف ليتناول (المفارقة اللغوية) وما يدور حولها ، وما تحمل من دلالات وإيحاءات ، وما تحقق من متعة للمبدع والمتلقي .

أسال الله العون ، آملًا أن يكون في هذا الكتاب نفع وفائدة للقارئ .

دكتور نعمان

المحلة الكبرى/ منشية البكري